

03 نوفمبر 2019

تسجيل الحجاج في اللغة: حالة نظرية الكتل

الدلالية – كوهي كيدا

ترجمة: د. إبراهيم أمغار



تسجيل المجاز في اللغة: حالة نظرية التكل الدلالية - كوهي كيدا

د. إبراهيم أمغار*

* باحث مغربي، حاصل على الدكتوراه في الدراسات اللغوية، تخصص: الدلالة والتداولية (2015)، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهرز، فاس. له العديد من الدراسات والأبحاث العلمية المنشورة.

توطئة المترجم:

مرت نظرية الحجاج في اللغة (ADL) *Argumentation dans la Langue*، منذ ظهورها أوائل ثمانينيات القرن الماضي، بعدة تحولات. لقد تأسست في بدايتها على يدي ديكرود DUCROT وأنسكومبر ANSCOMBRE وعرفت باسم "التداولية المدمجة"، وبرزت من خلال عدة دراسات ومؤلفات مثل كتاب "السلالم الحجاجية" لديكرو، وكتاب "الحجاج في اللغة" لديكرو وأنسكومبر، وكتاب "كلمات الخطاب" لديكرو وآخرين. ولكن تعرضت لانتقادات كثيرة بخصوص فرضياتها الأساسية عن جوهرية الحجاج في اللغة من طرف لغويين كثيرين مثل بيير مارتان Pierre MARTIN وأنطوان كوليو لي Antoine CULIOLI وفرانسوا ريكاناتي François RECANATI، ما استدعى من ديكرود وأنسكومبر إدماج مفهوم الموضع الحجاجي بفهم مختلف عما هو رائج في الدراسات المنطقية والفلسفية في النسخة الثانية من النظرية. ولكن النظرية الموضوعية تعرضت بدورها لانتقادات عديدة، دفعت بأنصار الدلائليات الحجاجية، ومعظمهم من زملاء ديكرود أو تلامذته، إلى طرح بدائل أخرى، تتفق رغم تنوعها في سعيها إلى وصف الحمولة الحجاجية المسجلة في معجم اللغة، فضلا عن الطريقة التي تقيدها اللغة التوجيهات الحجاجية للتعبيرات اللغوية، وخاصة من خلال أنواع مختلفة من الأدوات اللغوية كالروابط والعوامل ومفهوم الأصواتية polyphonie، ومن هذه البدائل:

- نظرية الكتل الدلالية *Blocs sémantiques* التي دشنتها ماريون كاريل Marion CAREL وطورتها مع ديكرود، وهي التي يقدم هنا أحد تلامذة ديكرود نبذة مقتضبة عن أهم مفاهيمها وأدواتها الوصفية ولإجرائية:
- ونظرية القوالب *théorie des stéréotypes* التي طورها أنسكومبر، منتقدا التوجهات الجديدة لزميله ديكرود، ويتشبه فيها بمفهوم "الموضع" الحجاجي وفق تصور بديل للنسخة الأصلية من النظرية، مستمد من تصور بوتنام PUTNAM للمعنى، وي طرح فيها

نظرية مختلفة عن نظرية ديكر و كاريل حول العلاقة بين المعنى والمرجع في العالم الحقيقي أو ما يفترض أنه كذلك، وهو ما يسميه أنسكومبر بالوظيفة المرجعية:

- ونظرية الحجاج اللغوي الموسع التي يتبناها تلميذ ديكر والمغربي أبو بكر العزاوي، واعتمد فيها على النظرية الأصلية، مع توسيعها لتمتد من حدود الجملة والملفوظ إلى دراسة أنماط مختلفة من الخطابات، متشبثا كذلك بمفهوم "الموضع" بمفهوم أوسع وأشمل مما في النظرية الموضوعية لديكر وأنسكومبر، ومنفتحا بشكل أكبر على المظاهر التداولية والمعرفية للخطاب، والمفسرة للسيرورة الحجاجية بين طرفي التفاعل، وربطه بمسارات التأويل المعرفية؛ فكان تصوره للحجاج أقل بنيوية وأكثر تداولية مما لدى ديكر و كاريل مثلا:

- وأطروحة بيار-إيف ركاك Pierre-Yves RACCAH عن "دلاليات وجهات النظر" *Sémantique des points de vue* والقيود على الحجج الممكنة، مستثمرا كذلك مفهوم "الموضع" ومحتفظا ببعض أدوات النسختين السابقتين من النظرية، مع ميل كبير إلى الصورنة والتمثيل الدلالي المنطقي؛ فطور ما يسميه "الموضع المعجمي" وفتح طرقا جديدا للوصف الدلالي الصوري للوحدات المعجمية؛

- ونظرية أولغا غالانانو Olga GALATANU عن "دلاليات الممكنات الحجاجية" *Sémantique des possibles argumentatifs*؛ وتستند إلى البحث عن نموذج لتمثيل الدلالة المعجمية، أو على نحو أدق إعادة بناء الدلالة المعجمية انطلاقا من فرضيات ناشئة عن تأويل معنى الكلمة المعنية بالدراسة في شتى صيغ ورودها المختلفة. ويسمح هذا التأويل بفهم التمثيلات الخاصة بالعالم المصمم والمتصور بواسطة اللغة، وتلك الخاصة بالإمكانات الخطابية على مستوى التسلسلات الحجاجية للكلمات، وهو ما يشكل العنصر المميز للدلاليات الحجاجية في جميع تياراتها.

وستعرفنا هذه المقالة المترجمة⁽¹⁾ فيما يلي على أهم الأدوات المبتكرة من طرف نظرية الكتل الدلالية لضمان وصف دلالي للغة منفصل عن الواقع تماما، ويحقق الأطروحة المركزية لنظرية الحجاج في اللغة، عن بنوية الخطاب المثالي؛ مع رصد لدورها في تحديد الدلالات المعجمية لمفردات اللغة وتحليل الخطاب.

نص المقال:

1. مدخل

من المعلوم أنه منذ الأعمال التأسيسية لديكرو وأنسكومبر، التي تعود إلى سنوات الثمانينيات، ظهرت مقاربات عدة تتمحور حول فرضية أن الحجاج ليس فقط ما نقوم به مع اللغة، بل هو مؤسس داخل اللغة، مسجل فيها. وتثير هذه الفرضية، المقبولة حاليا بشكل عام في خطوطها العريضة، كثيرا من المسائل التفصيلية: أين يتم تسجيل الحجاج تحديدا (في الخطاب أم في اللغة، أم في الدلالة)؟ ما هي طبيعة حجاج من هذا القبيل بالضبط (هل هو سلسلة من الاقتضاءات المشكلة لاستدلال ما، مبتور أم لا، أو خطاب تحكمه قوانين خاصة به)؟ إلى أي درجة يتم تسجيل الحجاج (إذا افترضنا على سبيل المثال أنه مسجل في دلالة الكلمة، هل يتعلق فقط بجزء من الدلالة، أم أنه يستنفذ هذه الدلالة كلها)؟ أقترح تقديم إجابة أولية عن هذه الأسئلة، في محاولة لوصف وحدات من المعجم في إطار نظرية الكتل الدلالية Théorie des Blocs Sémantiques (اختصارا TBS)، التي مهدت لها ماريون كاريل Marion Carel الطريق أوائل التسعينيات. وقد أسهمت، وما زلت أسهم، في تطوير النظرية. وبالنسبة للمراجع

(1) Kohei Kida, «L'inscription de l'argumentation dans le langage: le cas de la Théorie des Blocs Sémantiques, *Argumentation & Langage*, Sep 2015, Lausanne, Suisse.

<https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-01512444>. Submitted on 23 Apr 2017.

والمؤلف أستاذ جامعي بقسم الآداب في جامعة كايو Keio اليابانية، حصل على الدكتوراه في علوم اللغة من فرنسا سنة 1998، تحت إشراف رائد الحجاج اللغوي الفرنسي أوزفالد ديكرود Oswald Ducrot. نشر عدة دراسات في الدلالات الحجاجية والأدب الفرنسي.

الببليوغرافية، سأقتصر على الإشارة إلى مقالي المنشور في العدد الأخير من مجلة Travaux de linguistique.

2. مصطلحية

لنقف أولاً على مواضعة اصطلاحية، وسأعتبر التمييز الذي وضعه ديكرود بين «الجملة» phrase و«الملفوظ» énoncé أوائل السبعينيات أمراً مفروغاً منه، وهو ما يماثل التمييز بين «الجملة» sentence و«التعبير» utterance من قبل التداوليات المعاصرة الآخذة في التطور في أوساط اللسانيين الناطقين بالإنجليزية بالخصوص؛ حيث الجملة وحدة تركيبية مجردة، تشكل ملفوظاً بحدوثها المتفرد في لحظة معينة ومكان معين. وإضافة إلى ذلك، سأعتبر، مقتدياً بديكرود، «الدلالة» signification القيمة الدلالية للجملة و«المعنى» sens تلك الخاصة بالملفوظ. وبالمثل، سأحدث عن الدلالة فيما يتعلق بكل عنصر من العناصر المشكلة لجملة (كلمات أو مجموعة كلمات)؛ فالدلالة بطبيعتها ثابتة غير متغيرة من سياق لآخر. وباعتبارها نظرية دلالية، فإن نظرية الكتل الدلالية تهدف إلى وصف دلالة التعبيرات اللغوية.

سأفترض أن معنى ملفوظ يتضمن عدة "محتويات"، بعضها ينقل صراحة وقصدياً من قبل المتكلم، والبعض الآخر ضمناً، مستنتجاً من محتوى صريح، بالاحتكام إلى عدد من المبادئ التداولية مثل "قوانين الخطاب" لديكرود أو "الحكم التخاطبية" لغرايس GRICE. وبغية التبسيط، سأفترض لاحقاً أن المتكلم بملفوظ ينقل محتوى صريحاً وواحداً فقط.

3. التسلسل الحجاجي والمحتوى الحجاجي

ما المحتوى الصريح لملفوظ؟ غالباً ما تسمه التداوليات المعاصرة بمصطلح "القضية" (proposition) أو "المحتوى القضوي" (contenu propositionnel) أو "المحتوى الصدقي" (contenu vériconditionnel). أما "نظرية الكتل الدلالية" فترى الأمور بصورة مختلفة؛ فعوض السؤال عن المحتوى الصريح لملفوظ ما، فإنها تبدأ بطرح هذا السؤال المنهجي والتجريبي: كيف يمكننا الوصول إليه؟ والجواب هو أن الطريقة الوحيدة المؤكدة، في ظل

الظروف الراهنة، للقيام بذلك هي اللجوء إلى اللغة، وإلى استعمال مفردات اللغة، وباختصار إلى إعادة الصياغة paraphrase. وقد اكتشفت "نظرية الكتل الدلالية" أن المحتوى الصريح للعديد من الكلمات يمكن وصفه على نحو واف بواسطة ما يطلق عليه "التسلسل الحجاجي". وهاك بعض الأمثلة. لنعتبر الملفوظ (1):

(1) كان بيير مقتصداً.

ما المحتوى الذي يقصد المتكلم في (1) تبليغه؟ وفقاً لـ "نظرية الكتل الدلالية"، فقد تمت إعادة صياغته بواسطة خطاب حجاجي من قبيل (2):

(2) شيء ما عديم الفائدة لذا لم يقيم بيير بشرائه.

وينطبق الشيء نفسه على (3)، الذي تمت إعادة صياغة محتواه الصريح بواسطة (4):

(3) كان بيير حذراً.

(4) واجه بيير خطراً لذا اتخذ الاحتياطات اللازمة.

ولا يتم إنشاء الخطابات التي تستعملها "نظرية الكتل الدلالية" لإعادة صياغة محتوى ملفوظ بواسطة "لذا" (donc)⁽²⁾ فقط كما هو الحال في (2) و(4)، بل يمكن أيضاً صياغتها بروابط مثل "لأن" (car) أو "بسبب" (parce que). ومن ثم، تتم إعادة صياغة محتوى (1) لا بواسطة (2) فقط بل كذلك عن طريق خطاب مثل (5):

(5) لم يشتر بيير شيئاً معيناً، بسبب انعدام فائدة هذا الشيء.

ويمكن للرباط "إذا" أن يفى بالغرض أحياناً، فتتم إعادة صياغة محتوى العبارة (6) بخطاب مثل (7):

(2) من المعلوم أن للفظتين donc وpourtant مقابلات في العربية متنوعة بتنوع سياقات استعمالهما، وقد أثرنا أن يكون المقابل الرئيسي لـ (donc) هو "إذن" والمقابل الرئيسي لـ (pourtant) هو "رغم أن"، بشكل عام ومجرد، على أن نستعمل مقابلات أخرى بما تقتضيه سلامة التركيب اللغوي وتجنب الركاقة عند ترجمة الأمثلة. [المترجم]

(6) بيير حذر.

(7) إذا واجه بيير خطراً، فسيأخذ الاحتياطات اللازمة.

لإعادة صياغة محتوى ملفوظ، ما يزال ممكناً استخدام مجموعة أخرى من الروابط، مثل: "رغم أن" (pourtant)، "بينما" (bien que)، "حتى لو" (même si). وهكذا، تتم إعادة صياغة محتوى ملفوظ كـ (8) بـخطاب مثل (9):

(8) كان بيير شجاعاً.

(9) كان الأمر خطيراً غير أن بيير فعلها.

والأمر نفسه بالنسبة لـ (10) الذي أعيدت صياغته بواسطة (11):

(10) بيير ذكي.

(11) حتى لو كان الأمر صعباً، فإن بيير سيفهمه.

كل هذه الخطابات المذكورة، المستعملة لإعادة صياغة محتوى ملفوظ، تعيّننا "نظرية الكتل الدلالية" بالمصطلح العام نفسه "التسلسل الحجاجي". وتصنف التسلسلات الحجاجية إلى فئتين، اعتماداً على ما إذا كانت صيغت مع رابط من نوع (donc) "إذن" أو (pourtant) "رغم أن". ولنتفق على أن نسمي "حجة" كل محتوى ملفوظ موصوف بواسطة تسلسل حجاجي يعد بمثابة إعادة صياغة.

وقد يكون مغرباً تحليل محتوى حجاجي إلى محتوين قضويين كاملين ومستقلين، متصلين بواسطة رابط. ومن ثمّ، سيتكون المحتوى الحجاجي (2) "شيء ما عديم الفائدة لذا لم يقم بيير بشرائه" من محتوين قضويين [شيء ما عديم الفائدة] و [بيير لم يشتر هذا الشيء]، قابلين للتقييم بمعزل عن بعضهما البعض، مرتبطين بواسطة "لذا". لكن الحال ليس كذلك. بشكل عام، يشكّل المحتوى الحجاجي كلا غير قابل للتجزئة، ونتيجة لذلك، يُشكّل وحدة بالمعنى الأولي. دعونا نأخذ على سبيل المثال التسلسل الحجاجي (2) "شيء ما عديم الفائدة لذا لم يقم بيير بشرائه". لتتخيل موقفاً وجد فيه بيير شيئاً عديم الفائدة ولم يشتره، لا لأنه عديم الفائدة

بل لأن بيير لا يملك المال. فلن نقول حينئذ إن بيير كان مقتصدًا. لماذا؟ لأن التسلسل الحجاجي (2) "شيء ما عديم الفائدة لذا لم يقم بيير بشرائه" لا يقول إن هناك شيئًا ما بلا فائدة، وبصرف النظر عن هذه الحقيقة، فإن بيير لم يشتره، بل إن شيئًا ما كان عديم الفائدة، ولهذا السبب تحديدًا، لم يشتره بيير. وينطبق التحليل نفسه على (9) "كان الأمر خطيرًا غير أن بيير فعلها". فما يقوله هذا التسلسل الحجاجي ليس أن بيير فعل شيئًا على الرغم مما يمثله من خطر (كما لو قام مثلاً في موقف ما بفعل دون أن يدرك خطورته)، بل أن بيير فعل شيئًا رغم خطورته. وينبغي التنويه بالمناسبة إلى أنه إذا كان بيير قد فعل شيئًا بسبب ما يمثله من خطر، فسنكون حينئذ بصدد ملفوظ مثل "كان بيير متهورًا"، حيث تعاد صياغة محتواه بـ "كان الأمر خطيرًا لذا فعلها بيير".

4. الخطاظة الحجاجية والدلالة

ذلك هو في الأساس النمط الذي تعين به "نظرية الكتل الدلالية" معنى الملفوظات، لكنها تتجاوز ذلك إلى وصف التعبيرات اللسانية المختلفة. ولأجل ذلك، تقحم أداة وصفية أخرى هي "الخطاظة الحجاجية". والمقصود بها ما هو مشترك بين تسلسلات حجاجية.

لننظر في الملفوظات التالية من (12) إلى (14) والتسلسلات الحجاجية من (15) إلى (17) التي تعيد صياغة المحتوى المخصوص لهذه الملفوظات:

(12) كان ألبان حذرا.

(13) ظل برياك حذرا.

(14) سيدريك حذر.

(15) واجه ألبان خطرا لذا احتاط للأمر.

(16) أخذ برياك احتياطات بسبب مواجهته لخطر.

(17) سيأخذ سيدريك احتياطات إذا ما واجه خطرا.

وتفترض "نظرية الكتل الدلالية" أن هذه التسلسلات الحجاجية كلها مبنية على الخطاطة الحجاجية نفسها، موضحة في (18):

(18) خطر ذن احتياط⁽³⁾.

فالخطاطة الحجاجية هي ما يظل باقيا من تسلسلات حجاجية مختلفة، باستبعاد العناصر المتحدث عنها (ألبان، برياك، إلخ)، والأزمة النحوية (الحاضر، الماضي المستمر، الماضي المركب، إلخ)، والروابط (لذا، بسبب، إلخ). ويتم تمثيل الروابط بواسطة "ذن" (DC) أو "رغ" (PT)، بحسب ما إذا كانت من صنف "إذن" (donc) أو "رغم أن" (pourtant). وتشبه الخطاطة الحجاجية هيكلًا عظيمًا يكسوه المتكلم لحما بكلمات لبناء تسلسلات مملوسة. وسنقول إن التسلسلات الحجاجية المبنية على الخطاطة الحجاجية نفسها "تجسد" أو "تحقق" الخطاطة. وثمة ملاحظة بالغة الأهمية. فكما أشرت، فيقدر ما يشكل التسلسل الحجاجي كلاً لا يتجزأ دلالياً، فإن الخطاطة الحجاجية عبارة عن وحدة دلالية غير قابلة للتجزئة. لذلك لا ضرورة لاعتبارها مكونة من محمولين مستقلين دلالياً، بخلاف ما يمكن أن يوحي به تمثيلها كما في (18).

أما الآن، فسأبين كيف تصف "نظرية الكتل الدلالية" دلالة كلمات المعجم. لنعتبر الملفوظات الثلاثة (12) إلى (14). ولمراعاة حقيقة أنه يمكننا أن نبي، من هذه الملفوظات، التسلسلات الحجاجية (15) إلى (17)، تفترض "نظرية الكتل الدلالية" أن الصفة "حذر" تحتوي في دلالتها الخطاطة الحجاجية (18) "خطر ذن احتياط". وهو ما يمكنني تمثيله كما في (19):

(19) حذر: خطر ذن احتياط.

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن الكاتب وغيره من أتباع نظرية الكتل الدلالية يستعينون بما توفره الأبجدية اللاتينية من حروف تاجية Capital letters عند استعمال مختصرات من قبيل PT و DC و CONN، وقد استعضنا عن ذلك بكتابة المختصرات العربية المقابلة لها بخط غامق مع التسطير. [المترجم]

ومن المنظور نفسه، تصف "نظرية الكتل الدلالية" دلالة الصفات "مقتصد، شجاع، ذكي"، بربطها بخطاطات حجاجية بالصيغة التالية:

(20) *مقتصد: غير مفيد ذن نفتح-اشترى.*

(21) *شجاع: خطير سب فعل.*

(22) *ذكي: صعب سب فهم.*

("نفتح" (Narg) هو رمز النفي الحجاجي الذي لا يشمل فقط النفي "ليس، لا..." في استعماله غير الميتالغوي⁽⁴⁾، بل أيضا التعابير ذات التوجيه السالب حجاجيا مثل "القليل، نادرا، إلخ").

5. تلخيص

باختصار، تفترض "نظرية الكتل الدلالية"، كما تبين لنا، أن الحجاج مسجل في اللغة على مستويين: على مستوى معنى الملفوظات من جهة، حيث يقوم الحجاج بدور منهجي أولي، في صيغة تسلسل حجاجي، لجعل المحتوى الصريح للملفوظات جليا؛ وعلى مستوى الدلالة من جهة أخرى، حيث يجري تنفيذها، متبلورة، إذا جاز التعبير، وفق خطاطة حجاجية، لوصف دلالة وحدات اللغة.

6. مشكلة

بعد أن أوضحت أساسيات "نظرية الكتل الدلالية"، أود أن أقدم لكم فيما يلي مشكلة تقنية انشغل بها أتباع "نظرية الكتل الدلالية" لبعض الوقت، وهي مشكلة أعتقد أنها ذات أهمية

(4) النفي الميتالغوي في تصور التيار الرئيسي للدلالات الحجاجية، كما يتبناه أوزفالد ديكر، هو كل نفي يمثل نقضاً لإثبات سابق وقع التلفظ به حقا. ويعادل ابتداء قولنا: "ليس من حقك أن تقول..."، ويمكنه، عند الاقتضاء، إما الحفاظ على القيمة الحجاجية أو قلبها. [المترجم].

كبيرة ليس فقط لأولئك الذين يندرجون في إطار هذه النظرية بل كذلك لمن يهتم بتحليل النص أو الخطاب.

يتعلق الأمر بالعودة إلى الاقتران بين خطاطة وتسلسل. ولنتذكر أن الخطاطة الحجاجية هي ما نحصل عليه من عدد معين من التسلسلات الحجاجية بأن نستبعد من هذه التسلسلات كل عنصر من قبيل (الزمن النحوي، الروابط، إلخ).. ولكن بعد ذلك، يطرح سؤال جديد، وهو معرفة درجة الاستبعاد التي يمكن للمرء المضي فيها للحصول على خطاطة حجاجية. ففي الواقع، يمكن أن يتولد لدينا انطباع، بمجرد النظر في الأمثلة (15) إلى (17)، بأنه يكفي الأخذ بهذا اللفظ أو ذلك من تسلسلات حجاجية للحصول على الخطاطة الحجاجية التي تبني عليها. ومن ثمَّ، فإن الألفاظ المتكررة التي تشكل التسلسل الحجاجي (15) إلى (17)، في هذه الحالة "الخطر" و"الاحتياط"، تعاد كتابتها بكل بساطة في الخطاطة الحجاجية (18) "خطر ذن / احتياط"، لكن الشواهد العملية تظهر أن الأمور ليست بهذه البساطة.

سأناقش هذه المشكلة بالتفصيل من خلال محاولة وصف الفعل "عاقب" (punir). ولننظر في المثال التالي:

(23) - أوه! لكن الله موجود! سيعاقبك الله! إلهي! فليعان يوما مما أعاني منه! (دوما، الفرسان الثلاثة «نبيذ أنجو»)⁽⁵⁾.

المتحدث هو جندي يدعى بريزمون. وفي مخيم منصوب أمام [بلدة] لاروشيل، يتلقى دارتانيان دزينة من زجاجات النبيذ، معتقدا أنها مرسله من أصدقائه الثلاثة، فقام بإعداد مأدبة، ودعا بريزمون، مقدما له كأسا، ولم يكن يعلم أن النبيذ مسموم. يحتضر بريزمون، وهو يعتقد أن دارتانيان هو من ستمه، فألقى عليه لعنة كما في (23).

(5) DUMAS, *Les Trois Mousquetaires*, «Le vin d'Anjou».

ما المحتوى الذي يزمع بريزمون تبليغه لدارتانيان عندما قال له: «سيعاقبك الله»؟ سأقترح إعادة صياغته في تسلسل حجاجي كما في (24):

(24) لقد سممتني لذا سيجعلك الله تتسمم.

وأنا مدرك جيداً أن هذا التأويل قد يبدو غير متوقع نوعاً ما، للوهلة الأولى على الأقل، لكنه عند التمعن، يغدو ممكناً تماماً، ويكفي لي أن أقول إنه يظل إحدى الاحتمالات الممكنة.

والآن، ما الخطاظة الحجاجية التي استند إليها هذا التسلسل الحجاجي؟ لو تبيننا بالضبط الإجراء نفسه الذي يتيح الحصول على الخطاظة الحجاجية (18) انطلاقاً من تسلسلات حجاجية (15) إلى (17)، فسيتعين علينا أن نتخيل، بالنسبة لـ (24)، خطاظة حجاجية من قبيل (25):

(25) تسمم ذِن جعله متسمماً.

وتنشأ الصعوبة عندما نفترض أن هذه الخطاظة الحجاجية هي جزء من دلالة الفعل "عاقب". وفي الواقع، تقودنا هذه الفرضية إلى توقع خائب. فلننظر في المثال التالي:

(26) - سيدي، واصل فيلتون الكلام مستثاراً، سيدي، حذار، انجلترا كلها سئمت من آثامك؛ سيدي، لقد أسأت استغلال القوة الملكية التي اغتصبتها تقريباً؛ سيدي، أنت ممقوت من البشر والله. سيعاقبك الله لاحقاً، لكنني سأعاقبك اليوم (دوما، الفرسان الثلاثة، «الحوادث التي جرت في بورتسموث في 23 أغسطس 1628»)⁽⁶⁾.

كان هذا الضابط فيلتون الذي يخاطب دوق باكنجهام قبل وقت قصير من اغتياله. يرى فيلتون أن الدوق يستحق الإعدام لعدة أسباب: فهو رجل دولة فاسد؛ ويضطهد

(6) DUMAS, *Les Trois Mousquetaires*, «Ce qui se passait à Portsmouth le 23 août 1628».

البيوريتانيين⁽⁷⁾ (وفيلتون بيوريتاني متعصب)؛ وقد أخذى "ميلادي" التي يحمل لها فيلتون تقديسا وثنيا (وهذا الخزي في الحقيقة من وحي الخيال).

ما هو المحتوى الصريح للملفوظ «سيعاقبك الله» في هذا السياق الخاص؟ سوف أقترح إعادة صياغته بواسطة تسلسل حجاجي مثل (27):

(27) أنت خسيس لذا ستحترق في الجحيم.

ومع ذلك، لا يعتمد هذا التسلسل الحجاجي على الخطاظة الحجاجية (25) "تسمم نج جعله متسما": كيف يمكن أن نجسد "تسمم" و"جعله متسما" بواسطة "خسيس" و"الاحتراق في الجحيم" على التوالي؟ والأدهى من ذلك، يمكننا أن نتخيل خطاظة حجاجية أخرى من قبيل (28):

(28) خسيس ذن الاحتراق في الجحيم.

وهو لا يتيح بدوره حساب بناء التسلسل الحجاجي (24) "لقد سممتني لذا سيجعلك الله تتسمم".

ويتمثل الحل الذي أقترحه في إيجاد خطاظة حجاجية تجريدية بالقدر الكافي للتطبيق على حد سواء على كلا التسلسلين الحجاجيين (24) و(27). وإليكم ما أقترحه:

(29) عاقب: خطأ ذن معاناة.

في هذا المنظور، يُؤوّل المقطع الأول من التسلسل الحجاجي (24)، "لقد سممتني"، على أنه حالة خاصة من "الخطأ" المقصود في الخطاظة الحجاجية (29)؛ ويؤوّل المقطع الثاني من التسلسل الحجاجي نفسه، "سيجعلك الله تتسمم"، على أنه حالة خاصة من "المعاناة" التي تشير إليها

(7) البيوريتانية حركة مسيحية بروتستانتية إنجليزية ظهرت في القرن 16م لتطهير الكنيسة الإنجليزية، وتجمع خليطاً من الأفكار الاجتماعية، السياسية، اللاهوتية، والأخلاقية، ونادت بإلغاء الأزياء والرتب الكهنوتية. وتستعمل لفظة البيوريتاني أيضاً بشكل غير دقيق لوصف الإنسان بالتعصب الشديد أو ضيق الفكر. [المترجم].

الخطاظة الحجاجية نفسها. وينطبق الشيء نفسه على التسلسل الحجاجي (27)، حيث يؤول فيه على التوالي المقطعان، "أنت خسيس" و"ستحترق في الجحيم"، على أنهما تجسيد للنمط نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن "الخطأ" المعني في هذه الخطاظة قد يكون متفاوتا في الخطورة تبعا للسياق، بدءاً من رفض بسيط لإطاعة الوالدين إلى جريمة نكراء؛ وينطبق الشيء نفسه على "المعانة" التي تشير إليها الخطاظة نفسها، سواء أكانت بدنية أو معنوية، من فقدان لذة الأكل إلى عقوبة الإعدام. وهذا يعني، أنه يجب ألا ننسى أن الخطاظة الحجاجية عبارة عن وحدة غير قابل للتجزئة دلاليا. لذلك يعد من انتهاك اللغة الفصل بين "الخطأ" و"المعانة". وأود التشديد على أن مقطعي الخطاظة، "الخطأ" و"المعانة"، مترابطان دلاليا لدرجة أنهما يتحدان في كيان واحد؛ فجميع الأخطاء المذكورة تشترك في أنها تفضي إلى المعانة، مثلما تشترك جميع أصناف المعانة المذكورة في كونها نتيجة لخطأ.

ويستلزم هذا الحل، فيما لو كان جيدا، أن تتيح الخطاظة الحجاجية (29) "خطأ ذن معانة" نظريا بناء عدد لا نهائي من تسلسلات حجاجية. وسيكون كافيا للتحقق أن يكون هذا هو الحال بالنسبة لحالتين أخريين. وللقيام بذلك، سأخذ على سبيل المثال نصين آخرين لدوما.

المثال الأول. لننظر في النص التالي:

(30) - آه! قال لامول، هذا أمر مفهوم: لقد مددت يدك له في يوم زيارتنا؛ لقد نسيت أن جميع الرجال إخوة، لقد كنت مزدريا. والله يعاقبني على غروري، شكراً لله! (دوما، الملكة مارغو، "الكنيسة")⁽⁸⁾.

يخضع كوكوناس ولامول، المتهمان بجريمة انتهاك الذات الملكية، للاستجواب من قبل عساكر. ويقوم الجلاد كابوش بتجنيب كوكوناس عناء الألم، بينما يتعرض لامول للتعذيب لدرجة أن عظامه «تكسرت»، وجسده كله «ليس سوى كومة جروح». لماذا هذا الاختلاف؟ خلال زيارتهما

(8) DUMAS, *La Reine Margot*, «La chapelle».

لكابوش، لشكره على مرافقتهم إلى متحف اللوفر بعد معركتهما، كان لكل واحد منهما سلوك مختلف تجاهه؛ كان كوكوناس من مدّ يده لمصافحة يد الجلاد. وفي هذا المقتطف، يخاطب لامول كوكوناس عن الجلاد كابوش.

يمكننا إعادة صياغة المحتوى الذي يقصد لامول التعبير عنه بوضوح بقول «الله يعاقبني على غروري»، من خلال تسلسل حجاجي مثل (31):

(31) كنت مغرورا لذا جعلني الله أعاني من التعذيب.

ومن المفهوم أن هذا التسلسل الحجاجي يحقق بدوره الخطاظة الحجاجية (29)، "خطأ ذن معاناة"، حيث يعتبر غرور لامول هنا خطأ، والتعذيب المقصود معاناة.

وبهذا الصدد ثمة ملحوظة صغيرة عن تركيب الجملة. ففي منظور كمنظورنا، يمكننا وصف حرف الجر (من "ز") في التركيب ("س" عاقب "و" من "ز") على أن له وظيفة تحديد القسم الأول من خطاظة حجاجية (29). وهذا واضح في حالة ملفوظ لامول عندما تتم إعادة صياغة محتواه كما في (31).

المثال الثاني والأخير. لننظر في النص التالي:

(32) – غالبا ما دفعت السجينة قريبا من التهلكة أين ترمين بنفسك الآن بفضائك

وانتهاكاتك. إن الله يعاقبك بجرك إلى الموت هذه الفتاة التي أحببتها كثيرا. (دوما،

فارس البيت الأحمر، «التذكرة»⁽⁹⁾).

تم إيداع ماري أنطوانيت في الكنيسة في انتظار محاكمتها، يعتني بها السجنان تيسون وزوجته. وكانت زوجة تيسون تضطهد السجينة بإهانتها. في يوم ما، اكتشفت رسالة في زهرة قدمت للسجينة. وتتهم زوجة تيسون بالتآمر كلا من موريس ليندي، وهو شاب من الحرس الوطني للملكة، ولورين، زميله وصديقه. لكن خلال المحاكمة، يتبين أن الابنة تيسون هي التي أخفت

(9) DUMAS, *Le Chevalier de Maison-Rouge*, «Le billet».

الرسالة. لذلك نددت الأم مكرهة بابنتها. وهي يائسة، في طريق العودة إلى المعبد، تلتقي السيدة تيسون برجل يخفي وجهه في معطفه. ويقترح عليها طريقة لإنقاذ ابنتها إذا أرادت مساعدة الملكة في هروبها. ومن هنا جاء الخطاب (32)، كما لو كان تذكيراً لها بالحالة التي تردت إليها.

إن المحتوى الذي يقصد الرجل ذو المعطف تبليغه صراحة عندما يقول: «إن الله يعاقبك بجرك إلى الموت هذه الفتاة التي أحببتها كثيراً»، تعاد صياغته بواسطة تسلسل حجاجي مثل (33):

(33) أنت تضطهدين الملكة لذا يقود الله ابنتك إلى الموت.

من السهل ملاحظة أن المقطع الأول من (33) يحقق "الخطأ" من الخطاطة الحجاجية (29) "خطأ ذن معاناة"، على الأقل بالنسبة للمتكلم، المناصر للملكية على الأرجح، ويحقق المقطع الثاني "المعاناة" من النمط نفسه.

وملاحظة صغيرة عن تركيب الجملة مرة أخرى. يمكن وصف المصدر في التركيب ("س" عاقب "و" ب "ز") على أن له وظيفة تحديد القسم الثاني من الخطاطة الحجاجية (29)، "خطأ ذن معاناة"، أي "المعاناة" في هذه الحالة. وهو ما أكدته المثال (32)، الذي يبدو أنه يعطي دليلاً يوضح ماهية معاناة السيدة تيسون. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الملاحظة التركيبية وكذا نظيرتها السابقة تشكل، مثلما أفعل، حجة أخرى لوضع الخطاطة "خطأ ذن معاناة" ضمن الدلالة نفسها لـ "عاقب".

7. خلاصة

وختاماً، فمن السهل نسبياً العثور على تسلسل حجاجي لإعادة صياغة محتوى ملفوظ، ولكن بالنظر إلى عدد معين من التسلسلات الحجاجية، فإن الأكثر صعوبة هو العثور على خطاطة حجاجية جيدة تنبني عليها هذه التسلسلات كلها. وهنا مكمّن اشتغال اللغوي.

بمجرد اكتشافها، يمكن استخدام خطاطة حجاجية لتوجيه القراءة. في الواقع، ستكون سمة هذه الخطاطة دفع القارئ إلى البحث وإعادة تنظيم العناصر النصية التي يمكن أن تحقق الخطاطة. وهكذا، فإن تأويل ملفوظات بريزمون أو فيلتون «سيعاقبك الله»، يعني أن يكتشف في النص ما الذي يحقق الخطاطة الحجاجية (29) "خطأ ذن معاناة" المفترض أنها مسجلة في دلالة لفظة "عاقب". ومن ثم، يسلط مفهوم الخطاطة الحجاجية ضوءاً جديداً على مسألة ما هي عملية القراءة، وما هو فهم النص.

تسجيل الحجاج في اللغة: حالة نظرية الكتل

الدلالية – كوهي كيدا

ترجمة: د. إبراهيم أمغار

03 نوفمبر 2019



مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research